تنبيه الأنام إلى وجوب

صِلَةِ الأَرْحَام

بقلم

أبو الحسن علي بن حسن الأزهري

سلمه الله

شبكة الألوكة

www.alukah.net

تنبيه الأنام

إلى وجوب صلة الأرحام

بقلم

أبي الحسن علي بن حسن بن محمد آل سلام الأزهري

سلمه الله

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ذي الطول والآلاء، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء، وعلى آله وأصحابه الأتقياء. أما بعد:

فإن شرف المطلوب بشرف نتائجه، وعظيم شرفه، بكثرة منافعه، وبحسب منافعه تجب العناية به، وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته، وأعظم الأمور خطرًا وقدرًا، وأعمها نفعاً ورفداً[1]، ما استقام به الدين والدنيا، لأن باستقامة الدين تصح العبادة، وباستقامة الدنيا تتم السعادة[2].

وإن من جِمَاع الخير والبركة على الناس في الدين والدنيا؛ صلة الأرحام، ومن عظيم أمره وشرف قدره، أنه كان من أول وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوامره، كما في حديث أبي أمامة رضي الله عنه عند مسلم، قال عمرو بن عبسة السلمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنت؟ قال: أنا نبي، فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يُشرك به شيء[3].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان أهل الجنة بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل وعلى رأس ذلك صلتهم للأرحام.

قال تعالى:﴿ وَالَّذِين يَصِلُون مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَل وَيَخْشَوْن رَبَّهُم وَيَخَافُون سُوءَ الْحِسَابِ ﴾[4].

وصلة الأرحام من أهم حقوق الخلق بعضهم على بعض، وهي: الزيارة لهم، والسلام عليهم، والعطف والمودة لهم، والإحسان إليهم بدفع مال، أو تقديم مساعدة، أو قضاء حوائجهم، أو دفع ضر نزل بهم، ومشاركتهم في الأفراح والأحزان، إلى غير ذلك من أنواع الصلة والبر[5].

وصلة الأرحام من أهم الأعمال الصالحات التي يتقرب بها العبد إلى مولاه، لا سيما في هذا العصر، الذي كثرت فيه الملهيات والمغريات، والتي أشغلت الناس عن الواجبات والمستحبات.

---

(1) الرفد هو: العطاء.

(2) أدب الدنيا والدين: (3) للماوردي، ط: دار ابن الجوزي، بتصرف يسير.

(3) رواه مسلم رقم (832).

(4) سورة الرعد اية (19).

(5) قال النووي: قال العلماء: البر يكون بمعنى الصلة، وبمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة..ا.هـ شرح مسلم (16/ 85، رقم 2553) ط: دار المنار القاهرة.

فقصدت بهذه الرسالة إسهاماً وتذكيراً، وتنبيهاً وتحذيراً، وإيقاظًا لضمائر أراها قد ماتت في كثير من الأحيان، من أهلي وبني قومي، بل في عامة المسلمين ممن ألهتهم الحياة، فقصروا في الفرائض، وأضاعوا الواجبات، ونسوا النوافل والمستحبات!!

وكان من أسباب كتابة هذه الرسالة ما رأيته رأي العين من تقطيع لأواصر الصلة بين الأرحام، بأتفه الأسباب وأحقر الأمور، حتى رأيت أولاد الأب والأم تصل القطيعة بينهم إلى سنوات، ورأيت إحداهن تبكي على هذه القطيعة، ويُخيم عليها الحزن، حتى وصلت إلى أن السرور كاد لا يعرف طريقًا إلى قلبها، ولا البسمة تتخلل إلى تقاسيم وجهها، فحينها عزمت على كتابة ما تيسر لي جمعه وحصره، من مادة هذا الموضوع.

واقتصرت على ما ورد في كتاب الله، وما أورده المفسرون شرحًا وبيانًا، وما صح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، مورداً عليه بعض نِكت أهل العلم، وما تيسر من التعليق والتخريج والحكم على الأحاديث والأثار النبوية، بأقصر عبارة وأوضح إشارة تفي بالمقصود، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

الفقير إلى عفو مولاه الكريم

أبو الحسن علي بن حسن بن محمد آل سلام الأزهري

في العاشر من جمادى الآخرة سنة 1439

وكان أصل كتابتها في 1428.

الفصل الأول

" الترغيب في صلة الرحم "

إن من نِعم الله على عباده، رحمة بهم ومنة عليهم، أن جعل بينهم البر والإحسان والصلة، حتى يسود الترابط والتراحم بين أفراد المجتمع عامة، وبين ذوي الرحم خاصة، وقد بين ربنا في كتابه أن ذلك حق واجب للرحم، وليس تفضلاً ومَنًا لأحد على أحد، ولا من الواصل على القاطع.

قال تعالى:﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله: "لما ذكر تعالى بر الوالدين عَطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الرحم وكما في الحديث: (أمك وأباك ثم أدناك أدناك)، وفي رواية: (ثم الأقرب فالأقرب)"[2].

وأتى هذا المعنى واضحًا في حديث أنس بْنِ مَالِكٍ قال: " أَتَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي ذُو مَالٍ كَثِيرٍ، وَذُو أَهْلٍ وَوَلَدٍ، وَحَاضِرَةٍ، فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ أُنْفِقُ؟ وَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ، فَإِنَّهَا طُهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ، وَتَصِلُ أَقْرِبَاءَكَ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ، وَالْجَارِ، وَالْمِسْكِينِ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْلِلْ لِي، قَالَ: «فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ، وَالْمِسْكِينَ، وَابْنَ السَّبِيلِ، وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا»"[3].

ولِما رواه أَبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[4].

ومن عجيب تراجم الإمام البخاري – رحمه الله – أنه قال بصيغة الجزم والتحقيق: باب مَنْ بُسِط له في الرزق بصلة الرحم[5]. وترجم في الأدب المفرد أيضًا قال: باب صلة الرحم تزيد في العمر[6].

وقد تعددت الروايات ترغيباً وترهيباً في صلة الأرحام مفصلة تارة ومجملة أخرى، وما كل ذلك إلا لأهمية هذه الشعيرة الإسلامية التي تبعث على الرحمة والمودة والإخاء والتراحم بين أفراد المجتمع عامة، وبين أهل الرحم خاصة.

---

(1) سورة الأسراء 26.

(2) تفسير ابن كثير (ج3، ص1707) ط: دار ابن الهيثم الأولى.

(3) حديث صحيح رواه الإمام احمد في المسند برقم: (12394).

(4) رواه البخاري برقم: (6138) ومسلم برقم (1468).

(5) كتاب الأدب: (78 باب 12).

(6) الأدب المفرد: باب 23، ص 40، ط: دار الصديق السعودية.

ولقد ورد من حديث أنس رضي الله عنه روايات عدة ترغيبًا في صلة الأرحام. قال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[1]. وفي لفظ: (من أحب أن يُبسط له في رزقه)[2].

وفي رواية أخرى أكثر بيانًا عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُعَظِّمَ اللَّهُ رِزْقَهُ، وَأَنْ يَمُدَّ فِي أَجَلِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[3].

وفي رواية قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ، وَيُزَادَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْهِ، وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[4].

وعَنْه أيضا قال: إنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوَسِّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ، وَيَنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[5].

وكذا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ، وَيُزَادَ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْهِ، وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[6].

قوله: (يُنْسَأَ) أي: يؤخر، و(الأثر): الأجل، وأنه تابع للحياة في أثرها، و(بسط الرزق): توسيعه وكثرته، وقيل: البركة فيه، وأما التأخير في العمر: فهي الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها من الضياع في غير ذلك[7].

وصلة الرحم أيضًا سبب لعَمَارِ الديار وزيادة الأعمار ودفع ميتة السوء كما في حديث عائشة صلى الله عليه وسلم مرفوعًا: "صلة الرحم وحسن الجوار وحسن الخلق يَعْمُرَان الديار ويزيدان في الأعمار"[8]، وأخرج عبدالله بن أحمد في زوائد المسند" من حديث علي صلى الله عليه وسلم بنحوه قال: "ويندفع عنه ميتة السوء"[9].

---

(1) رواه البخاري برقم: (2067)، ومسلم برقم (2557).

(2) رواه البخاري برقم (5986).

(3) حديث صحيح رواه أحمد في المسند برقم: (12588).

(4) حديث صحيح رواه أحمد في المسند برقم (13401).

(5) حديث صحيح رواه أحمد في المسند برقم (13585).

(6) حديث صحيح رواه أحمد في المسند برقم (13811).

(7) شرح مسلم (87/16، رقم2555).

(8) حديث حسن رواه أحمد في المسند رقم (25259).

(9) رواه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند (1/ 143).

ومن عظيم فضلها أن ثوابها مُعجل في الدنيا قبل الاخرة وهو جلي واضح في رواية أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَابًا صِلَةُ الرَّحِمِ، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُونَ فُجَّارًا تُنْمَى أَمْوَالُهُمْ، وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ إِذَا وَصَلُوا أَرْحَامَهُمْ»[1].

والأسرعية في الإثابة؛ يحتمل أنها في دار الدنيا وقد ثبت أنها دار يُجزى فيها العبد على بعض أعماله كزيادة المال بالصدقة، وزيادة العمر بصلة الرحم، وإجابة الدعوات في قضاء الحاجات، كما أنها قد تُعجل فيها بعض العقوبات، لبعض العصاة كنقص الرزق بالربا والكذب[2].

وكن واصل الآداب حتى لكاشحٍ... تُوَقَّ في عمر ورزق وتسعد

وكن أنت؛ وهو خطاب لكل ما يصلح له الخطاب، من أهل السنة والكتاب، الذين لهم تمام الاقتداء بنبي الهدى والأصحاب، وصلة الأرحام جمع رحم، وهو القرابة، والصلة ضد القطيعة قال تعالى: ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها[3]. وقد عاتب رجل من بني ضبعة بني تميم فأنشد قائلاً:

أبني تميم أنا عمكم... لا تحرمن نصيحة الأعمام

إني أرى سبب الفناء إنما... سبب الفناء قطيعة الأرحام

فتداركوا بأبي وأمي أنتم... أرحامكم برواجحِ الأحلامِ[4].

وحث النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم ومعرفة النسب والرحم والأقارب، حتى يُتمكن من الوصل، وقد أتت بصيغة الأمر، وبوب عليها البخاري في "الأدب المفرد" باب: "تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم".

وساق حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال -وهو يخطب على المنبر-: (تعلموا أنسابكم، ثم صلوا أرحامكم، والله إنه ليكون بين الرجل وبين أخيه الشيء، ولو يعلم الذي بينه وبينه من داخلة الرحم، لأوزعه ذلك عن انتهاكه)[5].

---

(1) حديث حسن لغيره رواه ابن حبان في صحيحه برقم (441).

(2) التنوير شرح الجامع الصغير الأمير الصنعاني (ج2ص 356) ط دار السلام الرياض.

(3) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (347).

(4) ذكرها ابن أبي الدنيا في كتاب الأشراف في منازل الأشراف (1 | 332، رقم500).

(5) صحيح الأدب المفرد (53).

فكانت معرفة النسب مانعًا من التعدي على الحُرمات، وأتبعه بحديث سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص رضي الله عنه قال: (كنت عند ابن عباس رضي الله عنه فأتاه رجل، فمَتَّ[1] إليه برحم بعيدة، فقال ابن عباس: قال رسول الله: صلى الله عليه وسلم " تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإنه لا قرب لرحم إذا قطعت وإن كانت قريبة، ولا بعد لها إذا وصلت، وإن كانت بعيدة وكل رحم آتية يوم القيامة أمام صاحبها، تشهد له بصلة إن كان وصلها، وعليه بقطيعة إن كان قطعها"[2].

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، عَن النَّبِي صلى الله عليه وسلم قَالَ: "تَعَلَّمُوا مِن أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنّ صِلَةَ الرَّحِم مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي المالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ"[3].

وفي رواية: «تَعَلَّمُوا مِن أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي أَهْلِهِ، مَثْرَاةٌ فِي مَالِهِ، مَنْسَأَةٌ فِي أَثَرِهِ»[4]. قال الترمذي: (مَنْسَأَة فِي الأَثَرِ) يَعْنِي زِيَادَةً فِي الْعُمُرِ.

وقال الألباني- رحمه الله- في تعليقه على الأدب المفرد: أي أن الله جعل بحكمته صلة الرحم سببا شرعيا لطول العمر، وكذلك حسن الخلق وحسن الجوار كما في بعض الأحاديث الصحيحة، ولا ينافي ذلك ما هو معلوم من الدين بالضرورة أن العمر مقطوع به، لأن هذا بالنظر إلى الخاتمة، تماما كالسعادة والشقاوة فهما مقطوعتان بالنسبة للأفراد فشقي أو سعيد، فمن المقطوع به أن السعادة والشقاوة منوطتان بالأسباب شرعا، كما قال: (أعملوا فكل ميسرا لما خلق له فمن كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة)[5].

ثم اقراء ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾[6] فكما أن الإيمان يزيد وينقص وزيادته الطاعة ونقصانه المعصية، وأن ذلك لا ينافي ما كتب في اللوح المحفوظ، فكذلك العمر يزيد وينقص بالنظر إلى الأسباب، فهو لا ينافي ما كتب في اللوح أيضًا، فتأمل هذا فإنه مهم جدا في حل مشاكل كثيرة، ولهذا جاء في الأحاديث المرفوعة والموقوفة الدعاء بطول العمر[7] انتهى كلامه رحمه الله.

---

(1) فمَتَّ يعني: اتصل إليه بقرابة بعيدة.

(2) صحيح الأدب رقم (.54).

(3) حديث صحيح رواه الترمذي برقم (1979).

(4) حديث صحيح رواه أحمد في المسند برقم (8868)، والترمذي (1978).

(5) رواه البخاري (4949)، ومسلم (2641).

(6) سورة الليل.

(7) صحيح الأدب المفرد الألباني ص (40).

الفصل الثاني

" الترهيب من قطيعة الرحم "

إن صلة الرحم في الإسلام أمرُها جليل، وخطر قطعها عظيم، بل هي من الكبائر والمهلكات، لورود الوعيد الشديد، تصريحًا وبدون تلميح في نصوص الوحيين. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾[1].

قال ابن كثير رحمه الله: قوله ﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم ﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام ولهذا قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل وقد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:"إنَّ الله تعالى خَلق الخَلْقَ، حتى إذا فَرغَ منه فقامَتِ الرحِمُ فقالَتْ: هذا مقام العائِذِ بكَ مِن القَطيعَةِ، قال: نعم، أما تَرضينَ أن أصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وأقْطع مَن قطَعَكِ؟ قالتْ: بلى. قال: فذاك لَكِ". ثم قال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: "اقْرؤوا إنْ شئْتُم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنْ الرَّحِم شُجنة[4] منَ الرحمن تقولُ: يا ربِّ! إنِّي قُطِعْتُ، يا ربِّ! إنِّي أُسِيء إليّ، يا ربِّ! إنِّي ظُلِمْتُ، يا ربِّ! يا ربِّ! فيُجيبُها: ألا تَرْضِينَ أَنْ أَصلَ مَنْ وَصَلَك وأقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟!"[5].

والرحم هنا تستغيث بربها، شاكية إليه من مرارة القطيعة، وما يلحق بها من أذى.

---

(1) سورة محمد أية 22، 23.

(2) تفسير ابن كثير (ج4 ص2627).

(3) رواه البخاري برقم (4831، 5987)، ومسلم برقم (2554).

(4) قوله: (شُجنة من الرحمن) "يعني: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق. حجنة يعني: مثل الحديدة المعوجة من آخرها ويعلق فيها.

(5) قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (2530)، رواه احمد بإسناد جيد قوي، ورواه وابن حبان في صحيحه وقال صحيح لغيره.

وفي حديث أنسٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال: "الرحِمُ حَجَنَةٌ متمسَّكَةٌ بالعرْشِ، تكَلَّمُ بِلسانٍ ذَلِقٍ: اللهم صِلْ مَنْ وصَلَني، واقْطَعْ منْ قطَعَني، فيقول الله تبارك وتعالى: أنا الرحمنُ الرحيمُ، وإنِّي شقَقْتُ لِلرحِمِ مِن اسْمي، فَمن وصَلَها وصَلْتُه، ومَنْ بَتَكَها بَتَكْتُهُ[1]. أي أن الرحم معلقة في العرش تتكلم بلسان فصيح طلق وتدعو على القاطع لرحمه وكذلك تدعو للواصلين أرحامهم، واستجاب ربها حال قولها ودعائها.

قال تعالي: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾[2] نص القرطبي على أنها ظاهرة في صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات، ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ قيل في قطع الرحم، وقيل في جميع المعاصي[3].أ.هـ كلامه رحمه الله.

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[4].

أي: واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها[5].

واتقوا قطيعة الأرحام التي تَسَاءلون بها، فإنكم تقولون ناشدتك بالله والرحم، وعلل هذا الأمر بتخويف عواقب بطشه، لأنه مطلع على سرهم وعلنهم مع ما له من القدرة الشاملة، فقال مؤكدًا لأن أفعال الناس في ترك التقوى وقطيعة الأرحام، أفعال من يشك في أنه بعين الله سبحانه أي محيط بهم علما وقدرة... وخفض همزة الأرحام المقسم بها، تعظيمًا بها وتأكيدًا، للتنبيه على أنهم قد نسوا الله في الوفاء بحقوقهم، كما أقسم بالنجم والتين وغيرها... واتفق المسلمون على أن صلة الرحم واجبة وأحقهم بالصلة الولد[6].

وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله كذلك يجب القيام بحقوق الخلق خصوصا الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به[7].

---

(1) قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (2531) رواه البزار بإسناد صحيح وقال حسن لغيره.

(2) سورة الرعد أية (19).

(3) تفسير القرطبي (ج9ص 310)، أية: (21).

(4) سورة النساء أية: 5.

(5) تفسير ابن كثير (ج1 ص650).

(6) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (ج 5 ص176).

(7) تفسير السعدي ص(163) سورة النساء.

ومن عِظم جرم قطيعة الأرحام، وعلو شأن وصلها، أردفها وثنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإشراك بالله في النهي، وبعد الأيمان بالله في الأمر.

فعن رَجُلٍ مِنْ خَثْعَم قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَهو فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقُلْتُ: أَنْتَ الَّذِي تَزْعُم أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ؟، قَالَ: " نَعَمْ "، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبّ إِلَى اللهِ؟، قَالَ: " إِيمَانٌ بِاللهِ "، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ثُمّ مَهْ؟ قَالَ: " ثُمّ صِلَةُ الرَّحِمِ "، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَبْغَضُ إِلَى اللهِ؟، قَالَ: " الْإِشْرَاكُ بِاللهِ "، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ثُمّ مَهْ؟، قَالَ: " ثُمّ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ"، قُلْتُ: ثُمَّ مَهْ؟، قَالَ: " ثُمَّ الْأَمْرُ بِالْمُنْكَرِ وَالنَّهْي عَنِ الْمَعْرُوفِ "[1].

والقطيعة للأرحام سبب تعجيل العقوبة، وسخط الرب _جل وعز_ في الدنيا قبل الآخرة.

فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِم"[2]، وبلفظ: "ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم والخيانة والكذب، وإن أعجل الطاعة ثوابا، لصلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة، فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا"[3].

يعني: أنه تحصل له عقوبة في الدنيا والآخرة، فيجمع له بين العقوبة الدنيوية والأخروية، حيث يعجل له الله العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة، فُيجمع له بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، والضرر الذي يحصل في الدنيا، والضرر الذي يحصل في الآخر، وهذا يدل على عِظم وخطورة شأن البغي وقطيعة الرحم؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر أن صاحبهما جدير بأن يحصل له هذا وهذا، وأن يجمع له بين هذا وهذا"[4].

---

(1) حديث صحيح رواه أبو يعلى في المسند (6833) ط المعرفة بيروت وذكره الألباني في صَحِيح الْجَامِع رقم (166)، وصَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب رقم (2522).

(2) حديث حسن رواه أبو داود (4902) والترمذي (2511)، وابن ماجه (4211) وذكره الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (ص5/51) ط صنعاء.

(3) وصححه الألباني في "صحيح الجامع" برقم (10642).

(4) شرح سنن أبي داود للعلامة عبد المحسن العباد (28/ 167).

الفصل الثالث

"الأحق بالصلة الأقرب فالأقرب"

ومما يُتنبه له أن صلة الرحم درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة، وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب ومنها مستحب، فلو وصل بعض الصلة، ولم يصل غايتها، لم يُسم قاطعًا، ولو قصر عما يجب عليه وينبغي له، لم يسم واصلاً، قال القرطبي: الرحم التي توصل عامة وخاصة، فالعامة: رحم الدين، وتجب صلتها بالتودد والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة. والرحم الخاصة: تزيد بالنفقة على القريب وتفقد حاله، والتغافل عن زلته؛ ومعناه إيصال ما أمكن من الخير ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، وهذا هو حق المؤمن. واختلف العلماء أيضًا بأي شيء تحصل القطيعة للرحم؟ فقيل تكون بالإساءة إلى الرحم، وقيل: تكون بترك الإحسان، لأن الأحاديث آمرة بالصلة ناهية عن القطيعة، ولا واسطة بينهما. والصلة نوع من الإحسان، كما فسرها ذلك غير واحد، والقطيعة ضدها، وهي ترك الإحسان)[1].

وأقل الوصل إلقاء السلام على ذوي الأرحام لقوله: "بلوا أرحامكم ولو بالسلام"[2].

ولما كانت القرابة تتفاوت وبعضها فوق بعض، وبعضها أرفع من بعض بَيَّنها النبي صلى الله عليه وسلم، فتجد النبي صلى الله عليه وسلم يقدم الأم أولا ويكررها ثلاثا ثم يعقبها بالأب مرة واحدة. ففي حديث الْمِقْدَام بْن مَعْدِي كَرِب رضي الله عنه قال: إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ ثَلَاثًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، إِنّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ"[3].

وفي رواية أخرى تبين أن الأم أحق الناس بالصحبة والحب والود والبر عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ فَقَالَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " أُمُّكَ "، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: " أُمُّكَ " قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: " أُمُّكَ "، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: " ثُمَّ أَبُوكَ[4] " ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ"[1].

---

(1) سبل السلام ص 1243 ط: المكتبة الإسلامية بالقاهرة بتصرف.

(2) حديث حسن قال الالباني في الصحيحة (1777) حسن بمجموع طرقه وعزاه إلى وكيع في الزهد (2|74)، وابن حبان في الثقات(1|75)، والقضاعي في مسند الشهاب (1|50)، وقال: بلوا: أي ندوها بصلتها، وهم يطلقون النداوة على الصلة، كما يطلقون اليبس على القطيعة.

(3) حديث صحيح رواه ابن ماجة برقم (3661)، ورواه البخاري في الأدب المفرد برقم (60).

(4) إلى هنا رواه البخاري (5626)، ومسلم (2548).

وفي رواية وضحت وعينت هؤلاء الأقارب فقَالَ المقدام رضي الله عنه: إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، قَام فِي النَّاسِ فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوصِيكُمْ بِالنِّسَاء خَيْرًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيك بالنِّسَاءِ خَيْرًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالنِّسَاءِ خيرًا، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، وبآبائكم، وإخوانكم، وعماتكم، وخالاتكم.)[2].

وفي حديث أَبِي صَعْصَعَةَ بْنِ نَاجِيَةَ: قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رُبَّمَا فَضَلَتْ لِي الْفَضْلَةُ خَبَّأْتُهَا لِلنَّائِيَةِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمَّكَ وَأَبَاكَ، أُخْتَكَ وَأَخَاكَ، أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»[3].

وفي لفظ: " إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُوصِيكُمْ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، إِنَّ اللَّهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَبَنَاتِكُمْ، وَأَخَوَاتِكُمْ، وَعَمَّاتِكُمْ، وَخَالاتِكُمْ"[4].

وقد بوب عليه البخاري في (الأدب المفرد) باب: بر الأقرب فالأقرب[5]. وفي هذا بيان أن المقدم في الصلة الأقرب؛ وأعلى درجاتها الأم، ثم الأب ثم الجدة ثم الجد ثم البنت ثم الولد ثم الأخوات ثم الإخوة ثم العمات ثم الأعمام ثم الخالات ثم الأخوال ومن تلا ذلك من الرحم الأقرب فالأقرب قدمت النساء في كل لدلالة الوصية بالنساء ثم النص على الأم والبنت والأخوات والعمات والخالات. والله أعلم.

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: " قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي أُمًّا وَأَبًا، وَأَخًا وَأُخْتًا، وَعَمًّا وَعَمَّةً، وَخَالًا وَخَالَةً، فَأَيُّهُمْ أَوْلَى إِلَيَّ بِصِلَتِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، أُمَّكَ وَأَبَاكَ، وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ")[6].

فيه بيان أن يدا المعطي المنفق هي العليا وأن البدأ بالعطية يكون للأقرب ومن يعول أولاً، وأن يكون هؤلاء محل نظره، وأن يكون خيره وعطفه لهم أولاً.

---

(1) روى هذه الزيادة الترمذي 1897وقال الترمذي حسن، وحسنه الألباني.

(2) أورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية برقم(1675)، وأخرجه الطبراني في الكبير (20/ 274: 64)، من طريق داود بن رشيد، بنحوه.وكذا أخرجه في مسند الشاميين (1377) والحديث له شواهد يرقي بها إلى الحسن لغيره كذا قاله محقق المطالب العالية طبعة: دار العاصمة للنشر والتوزيع – دار الغيث للنشر والتوزيع مجموعة رسائل جامعية.

(3) رواه الحاكم (6642).

(4) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده برقم(495).

(5) الأدب المفرد باب(26).

(6)حديث صحيح رواه النسائي (25329)، وأحمد(7105)، وابن حبان(3341)، والحاكم في المستدرك(7245).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى رَجُلٌ إِلَى النَّبِيَّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا كَبِيرًا، فَهَلْ لِي مِن تَوْبَةٌ؟، فقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم " أَلَكَ وَالِدَانِ؟"، قَالَ: لَا، قَالَ: " فَلَكَ خَالَةٌ؟ "، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: " فَبِرَّهَا إِذًا "[1].

جعل النبي صلى الله عليه وسلم لزوم الوالدين والخالة وبرهما، سبيل التوبة وتكفير الذنوب وإن كانت من الكبائر.

وروي من حديث كليب بن منفعة عن جده، أنه أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أبَرُّ؟ قال: " أُمَّكَ، وأباكَ، وأختَكَ، وأخاكَ، ومولاكَ الذي يَلي ذاك، حقٌّ واجبٌ، ورحِمٌ موصُولَةٌ"[2].

واعلم أخي الكريم: أنه لا خلاف في أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة والأحاديث في الباب تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة، وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب ومنها مستحب، ولو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يُسما قاطعًا، ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسما واصلا[3].

قال ابن حجر رحمه الله: صلة الرحم تطلق على الأقارب؛ وهم من كان بينه وبين الأخر نسب سواء أكان يرثه أو لا، سواء كان ذا محرم أم لا[4].

ثم **إن من الصلة أيضًا أن يصل أصدقاء الأب والأم**، فعن ابنِ عمر، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:" إن أبَرَّ البرَّ صِلةُ المرءِ أهلَ وُدِّ أبيه بَعْدَ أن يُوَلِّي"[5].

وكذا يحسن أن يفعل هذا مع زوجه فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرب أصدقاء خديجة رضي الله عنه ويهدي إليهم، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، يَقُولُ: «أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ»[6].

---

(1) حديث صحيح رواه والترمذي برقم(3975)، وابن حبان في صحيحه برقم (435)، الإمام أحمد في المسند برقم(4624)، وذكره الالباني في صحيح الترغيب برقم (2504).

(2) حديث حسن لغيره رواه الترمذي برقم (5140).

(3) صحيح مسلم بشرح النووي (ج15ص87 رقم/2552).

(4) فتح الباري (ج10/ ص556، رقم5983).

(5) أخرجه مسلم (2552)، وابو داود 5143،والترمذي (2013).

(6) رواه مسلم برقم (2435).

والخلاصة: في هذا ما نقله النووي عن القاضي عياض وعلق عليه قائلا: قال القاضي عياض: (وأجمعوا على أن الأم والأب آكد حرمة في البر ممن سواهما). قال: وتردد بعضهم بين الأجداد والأخوة لقوله: " ثم أدناك أدناك". قال أصحابنا: يستحب أن تقدم في البر الأم ثم الأب، ثم الأولاد، ثم الأجداد والجدات، ثم الإخوة والأخوات، ثم سائر المحارم من ذوي الأرحام، كالأعمام والعمات، والأخوال والخالات، ويقدم الأقرب فالأقرب، ويقدم من أدلى بأبوين على من أدلى بأحدهما، ثم بذي الرحم غير المحرم كابن العم وابنته، وأولاد الأخوال والخالات وغيرهم، ثم بالمصاهرة، ثم بالمولى من أعلى وأسفل، ثم الجار، ويقدم القريب البعيد الدار على الجار، وكذا لو كان القريب في بلد آخر قدم على الجار الأجنبي، وألحقوا الزوج والزوجة بالمحارم والله اعلم.

الفصل الرابع

"البر والصلة حتى بالرحم المشرك"

إن من عظيم فضل الله ورحمته وإحسانه وحلمه، أن جعل صلة الرحم لا تنقطع حتى بالأب والأم المشركين، ولذلك عقد البخاري في أدبه المفرد بابًا قال فيه: **"صلة ذي الرحم المشرك والهدية"**.

وكذلك الإحسان والبر إليهما، أما الموالاة والمحبة فلا تكون إلا للمؤمنين، وبيان هذا مفصلاً في كتب الاعتقاد، وهنا أبين طرفًا منه إجمالاً والله المستعان.

أما الإحسان والبر إليهما فيجوز وإن كانا كافرين:

ففي حديث أسماء رضي الله عنه، دلالة واضحة على الأمر بصلة الأم، وإن كانت راغبة عن الإسلام، قالت أَسْمَاء بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي، وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَمُدَّتِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ[1]، أَفَأَصِلُهَا؟، قَالَ: " نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ ".

قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[2]،[3].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[5].

---

(1) راغبة يَعْنِي: هي مُحْتَاجَةٌ إلى وصلها.

(2) سورة الممتحنة/8، 9.

(3) رواه البخاري برقم (2427،5634،3012)، ومسلم برقم (1003).

(4) سورة الممتحنة (8).

(5) سورة لقمان (14/ 15).

وسبب نزول هذه الآية هو: ما رواه مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ قَالَ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْدٍ أَنْ لَا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ، قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّ اللهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ، وَأَنَا أُمُّكَ، وَأَنَا آمُرُكَ بِهَذَا. قَالَ: مَكَثَتْ ثَلَاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ، فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي ﴾ وَفِيهَا ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[1].

يقول ابن بطال: لأن الله قد أمر بصلة الآباء الكفار وبرهما بقوله: ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم ﴾[2]. الآية، فأمر تعالى بمصاحبة الأبوين المشركين في الدنيا بالمعروف، وبترك طاعتهما في معصية الله[3].

ويوضح ذلك أيضًا حديث عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ: " إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ سَأَبُلُّهَا بِبَلَاهَا "، يَعْنِي: أَصِلُهَا بِصِلَتِهَا[4].

أي أن هؤلاء ليس بيني وبينهم أي ولاية ولا ود، إلا الرحم وهذه ستكون سببا في الوصل بهم.

أما أدلة دليل تحريم الموالة والمحبة وأنها لا تكون إلا للمؤمنين فقط دون غيرهم، فمنه قوله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[6].

---

(1) مسلم (1748).

(2) سورة لقمان: (15).

(3) شرح صحيح البخاري لابن بطال 127/7 طبعة الرشد، ت أبو تميم ياسر بن إبراهيم.

(4) رواه البخاري برقم (5990)، ومسلم برقم (366).

(5) سورة المجادلة (22).

(6) سورة المائدة (51).

وفي حديث عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه بيان شافي: قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ: "إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ سَأَبُلُّهَا بِبَلَاهَا "، يَعْنِي: أَصِلُهَا بِصِلَتِهَا[1].

وهذا الأمر يحتاج إلى تفصيل أكثر من هذا ليس هنا محله، ويُرجع في هذا إلى كتب العقيدة، والكتب التي أفردت في الولاء والبراء[2]، لا سيما في هذا العصر الذي كثر فيه القائلون على الله بغير علم، فأكثروا فيه الكلام، فخبطوا خبط عشواء، وركبوا متن عمياء، وهم جُهال قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

(1) رواه البخاري برقم5990، ومسلم برقم 366.

(2) والمرجع في هذا ما حرره أهل العلم الكبار مثل الشيخ ابن باز والعثيمين والألباني والفوزان ولهم المرجع والمرد في هذا الأمر في هذا العصر والله أعلم.

الفصل الخامس

" أعظم صلة الرحم بر الوالدين "

إن صلة الرحم لها من المكانة العظيمة في دين الإسلام، ما يجعل المرء يقف عندها ليرى ويتأمل آثارَ رحمةِ الله، وكيفية الود والحب والمعروف والألفة، التي تكون ناتجة من خلال هذه الصلة للأرحام، لا سيما وإن سِرْنا فيها بسير الشريعة السمحة السهلة الغراء.

وإذا كان الأمر بصلة الأرحام أي –الأقارب ومن له نسب من الأعمام والأخوال وأولادهما ومن تلا – تأخذ هذه الأهمية في دين الإسلام كما مر في الفصول السابقة؛ ففي أي منزلة وفي أي مكانة تكون أهمية الصلة والبر بالوالدين؟؟.

إذا أردنا أن نتحدث عن هذا الأمر الذي أخذ عناية كبيرة في دين الإسلام من خلال القرآن والسنة وأقوال العلماء سلفًا وخلفًا، فإننا نجد القرآن قد تحدث في كثير من المواضع، عن البر بالوالدين والوصية بهما في مواضع عدة.

قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ﴾ [1].

أي: وأمرنا الإنسان، ووصيناه بوالديه حسنًا أي ببرهما والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك ولا يَعُقَّهُمَا ويسئ إليهما في قوله وفعله[2].

وهذا لما لهما من المكانة العظيمة التي وضعها الله لهما حتى صارت من أحب الأعمال إلى الله كما في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟، قَالَ: " الصَلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا "، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: " ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ "، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟، قَالَ: "الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ"[3].

---

(1) سورة الأسراء (23).

(2) تفسير السعدي (627).

(3) رواه البخاري (504)، ومسلم(137).

وقوله تَعَالَى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[1]

بعد أن بين حقه في عدم الإشراك وقضاءه قضاء دينيا وأمرا شرعيا (أَلَّا تَعْبُدُوا) أحدًا من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات، ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين فقال: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أي أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي، لأنهم سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا) أي إذا وصلا إلى هذا السن الذي تضعف قواهما، ويحتاجان فيه من اللطف والإحسان ما هو معروف (فلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ) هذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ما سواه، والمعنى لا تؤذهما أدنى أذية، (وَلَا تَنْهَرْهُمَا) أي: تزجرهما، وتتكلم لهما كلاما حسنا (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) بلفظ يحبانه وتأدب وتلطف بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما وتطمئن بهِ نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) أي: تواضع لهما ذلاً لهما ورحمة- واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما ونحو ذلك من المقاصد التي يؤجر عليها العبد، (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا)-أي ادعوا لهما بالرحمة أحياء وأمواتًا، جزاءً على تربيتهما إياك صغيرا[2]. انتهى كلام السعدي رحمه الله، وفي كلامه العبرة والعظة، لكل متدبر ومتأمل، قد نقلته بحروفه وتمامه، فهو كلام نفيس جدير للمسلمين أن يتدبروه ويتأملوه، ويسيروا على منواله، ويتأدبوا بأخلاقه، ويكون لهم نبراسًا ونورًا متبعًا، في هذه المجتمعات التي خلت من هذه الآداب القرآنية، والسنن النبوية المحمدية التي فيها صلاح العباد والبلاد.

ثم تعددت مكانة الأبوين في الآثار النبوية كثيرًا، فمرة يعبر عنها؛

- أنهما أوسط أبواب الجنة كما في حديث أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ فِينَا رَجُلٌ لَمْ تَزَلْ بِهِ أُمُّهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ، حَتَّى تَزَوَّجَ، ثُمَّ أَمَرَتْهُ أَنْ يُفَارِقَهَا، فَرَحَلَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ بِالشَّامِ، فَقَالَ: إِنَّ أُمِّي لَمْ تَزَلْ بِي حَتَّى تَزَوَّجْتُ، ثُمَّ أَمَرَتْنِي أَنْ أُفَارِقَ، قَالَ: مَا أَنَا بِالَّذِي آمُرُكَ أَنْ تُفَارِقَ، وَمَا أَنَا بِالَّذِي آمُرُكَ أَنْ تُمْسِكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "

(1) سورة الاسراء الآية (23).

(2) تفسير السعدي: (456).

الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ "[1] فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوْ احْفَظْهُ[2] قَالَ: فَرَجَعَ وَقَدْ فَارَقَهَا[3].

- ومرة عبر عن الجهاد يكون في الوالدين ما دامت الحياة تنعم بهما كما في رواية عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي وَجْهَ اللهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: " هَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ "، قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، وَلَقَدْ تَرَكْتُهُمَا يَبْكِيَانِ، قَالَ: " فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللهِ؟ "، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: " فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ وَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا وَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا" وَأَبَى أَنْ يُبَايِعَهُ [4]".

- وعبر أخرى أن الجنة وما فيها من نعيم تحت قدمي الوالدين. فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ: جَاءَ جَاهِمَةُ رضي الله عنه إِلَى النَّبِي صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ، وَجِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ "، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: " فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَبَرَّهَا؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا" وفي رواية: " الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْجَنَّةُ "[5].

- وعبر عنها مرة أخرى بأن التوبة من القتل؛ هي لزوم الأم ببرها والعمل على خدمتها وطاعتها. فعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ لابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فَقَالَ: "إِنِّي خَطَبْتُ امْرَأَةً، فَأَبَتْ أَنْ تَنْكِحَنِي، وَخَطَبَهَا غَيْرِي، فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنْكِحَهُ، فَغِرْتُ عَلَيْهَا فَقَتَلْتُهَا، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟، قَالَ: أُمُّكَ حَيَّةٌ؟، قَالَ: لاَ، قَالَ: تُبْ إِلَى اللهِ – عز وجل – وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ، قَالَ عَطَاءٌ: فَذَهَبْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: لِمَ سَأَلْتَهُ عَنْ حَيَاةِ أُمِّهِ؟، فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَعْلَمُ عَمَلاً أَقْرَبَ إِلَى اللهِ – عز وجل – مِنْ بِرِّ الْوَالِدَةِ."[6]

---

(1) حديث صحيح رواه والترمذي برقم (1900)، واحمد في المسند برقم (27551)، وابن حبان في صحيحه برقم(425)، وذكره الالباني في الصَّحِيحَة رقم(.914).

(2) حديث صحيح رواه الترمذي رقم (1900)، وابن ماجة رقم (3663)، واحمد في المسند رقم (27551).

(3) حديث صحيح رواه احمد في المسند (27551)، وابن حبان (425)، وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (2486).

(4) رواه البخاري (2842)، ومسلم (2549).

(5) حديث صحيح رواه النسائي (31049)، وابن ماجه(2178)، وأحمد في المسند (15577)، وذكره الألباني في صحيح الجامع: (1248)، وصحيح الترغيب والترهيب: (2484).

(6) انظر صَحِيحُ الْأَدَبِ الْمُفْرَد: (4).

بل اعلم أخي أن البر بالوالدين لا ينقطع حتى بعد موتهما، فقد أتى رجل من بني سَلِمَة فقال: يا رسول الله أبقي من بر أبوي شيء أبَرهما به بعد موتهما؟ قال: "نعم. الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإيفاء بعهودهما من بعد موتهما وإكرامُ صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل الا بِهما"[1].

وهذا مثل من جيل الصحابة عليهم الرضوان، يوضح كيف يكون البر بالوالدين. فعَنْ أَبِي بُرْدة قَالَ: شَهِدْتُ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنه وَرَجُلٌ يَمَانِيٌّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ قَدْ حَمَلَ أُمَّهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، يَقُولُ: إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمُذَلَّل... إِنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُهَا لَمْ أُذْعَرْ[2] ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ، أَتَرَانِي جَزَيْتُهَا؟، قَالَ: لاَ، وَلاَ بِزَفْرَةٍ[3] وَاحِدَة ((4).

وهذا الذي مر جزء من كل وغيض من فيض في هذا الباب العظيم، وبه يتبين أهمية صلة الأرحام، وعظيم أثرها في حياة المسلمين، وأن قطيعة الأرحام من العقوبات التي جعلها رب العالمين معجلة في الدنيا، ثم تكون المؤاخذة الكبرى بها في الآخرة، وأولى الناس بالصلة الوالدان، كما بين ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العظيم.

والحمد لله رب العالمين أولاً وأخراً ، ظاهراً وباطناً.

---

(1) حديث حسن رواه ابو داود 5142، ابن ماجه 3664، وأحمد في المسند 16059

(2) أذعرت أي أخفت بعيرها.

(3) قال الألباني في تعليقه على الأدب المفرد: (وهو تَرَدُّد النفس حتى تختلف الأضلاع، وهذا يَعْرِضُ للمرأة عند الوضع.).

(4) رواه البخاري في الأدب المفرد رقم 9 وصححه.